صباح مشرق مع الأميرة مي ـ سي

• جليل القيسي*

سألني أحدُ الحرّاس المتجهّمين، وأنا أجرّ خطواتي برفقٍ حاملاً صرةً مليئةً بالخبز على ظهري، ويَتْبعني جدْيٌ صغير ينطّ بطريقة رشيقة: «أنتَ يا رجل. قف. لمن تأخذ قرابينك؟» أرسلتُ إليه نظرةً باردة، وناديتُ على الجدْي أن يَتْبعني، وسرتُ بهدوء باتّجاه القصر. ناداني مرّةً أخرى بصوتٍ عالٍ: «من أنتَ؟» أجبتُه ببرود: «أنا سومريّ، وحُرٌّ أن أقدّم قرابيني لمن أشاء، وأُدعى جليل القيسي، وذاهبٌ باتّجاه القصر.» أرسل إليّ نظرةَ تعجُّب شديدة، وأخرى إلى الجدي الصغير السعيد في عالمه الحيوانيّ، ونظرةً أخرى إلى صرّة الخبز، ونظرةَ انشداهٍ إلى بنطالي الجينز وإلى حذائي، وقال: «لكنْ مِنْ حقّي كحارس لهذا المكان، وفي هذا العيد المقدّس، أن أَعْرف لمن تقدّم قرابينك؟ هل هي لإي ـ كَالْ ـ لا،[1] أم لمكان آخر؟» قلتُ بلامبالاة: «لو كانت قرابيني لإي ـ كَالْ ـ لا لكان يجب أن تكون من الخبز والجعة فقط.» وأضفتُ: «يبدو يا عزيزي الحارس أنّك كسومريّ لا تَفْهم جيّدًا طقوسَ تقديم قرابين عيد كي ـ سوك.» أجابني بعصبية، وهو يَغْرس رمحَه بقوّة في الأرض: «ماذا؟ هل تُفهمني بطقوس مدينتي الدينية؟ طبعًا أَعْرف جيّدًا أنّ عيد كي ـ سوك هو اليوم، ولهذا أنا هنا.» قلت: «حسنًا أخبرني إذًا ما هو هذا العيد؟» أجابني بنفاد صبر: «أرجوك.. أرجوك، الآن أَخْبرني عن وجهتك.» صرختُ: «هل حقًا يوجد سومريّ مخْلص يَمْنع سومريًا مخلصًا من تقديم قرابينه في عيد كي ـ سوك؟ أَجِبْ. هذا كفرٌ! إنّ قلبَ السومريّ في هذا اليوم يكون مليئًا بالمحبّة، واللهفةِ بالدعاء للآلهة لإحياء الأراضي البُور.»

لانت قسماتُ وجه الحارس، وقال بصوت أقرب إلى الهمس: «يا صديقي السومريّ، يا ابنَ مدينتي، معذرةً. أنا في الحقيقة لا أمنعك. إنّني أحترم مشاعرك الحارّة. لكنّ الذهاب باتّجاه قصر الأميرة ممنوع.» قلتُ: «لكنّني مصرّ على أن أَذْهب إلى قصر الأميرة مي ـ سي. تعال معي.» قطّب وجهه وقال بارتباك: «أنت عاقل؟ مواطن عاديّ، وغريبُ الشكل والملبس، يذهب إلى الأميرة مي ـ سي؟» قلت: «أعرف أنّ هذا ليس أمرًا سهلاً، وفي هذا اليوم المبارك. عليكَ أن تصطحبني فقط وأنا أتكفّلُ ببقية الأمر.»

سار بخطوات مهزوزة. من بعيد كان حشد من الزوّار يتوجّهون إلى مسكن الباتسي، وأرتالٌ من الزوّار يَحملون جِرارًا كبيرةً مليئةً بالجعة، وتلالاً من الخبز يسيرون باتّجاه القصر الملكيّ. وكان الكهنة والمحاسبون يردّدون بصوت آمر «Ki-sug-ga»[2] وآخرون يردّدون: «Ki-Sugsu»[3] بعد مسيرة ربع ساعة وقفتُ أمام قصر منيف. قال الحارس: «هذا هو قصرُ الأميرة مي ـ سي.» كان الحشد الذي قَدَّمَ قرابينه للمحاسبين والكهنة قد تراجع بخطوات وئيدة وحركات رفيقةٍ تدلّ على ذروة الخشوع، وراحوا يرتّلون بصوتٍ كورالِيٍّ حزين: «الخوف من الآلهة مدعاة للعطف، والقرابين تطيل العمر.»[4]

◆ ◆ ◆

بقيتُ مع صرة الخبز والجدي والحارس. اقترب أحدُ المحاسبين وصرخ في وجهي: «لماذا واقف هنا؟ تحركْ واجلب الجديّ وحِمْلَكَ من الخبز.» لم أُعِرْه اهتمامًا. تقدم منّي ومدّ يده ليأخذ صرّة الخبز. رفضتُ. قال: «من أنتَ؟ لِمَ لا تسلّم قربانك وتَذْهب؟» قلتُ ببرود: «الجدي والخبز للأميرة مي ـ سي شخصيًا.»

دقّق بصرَه فيّ بحيْرةٍ، بدءًا من حذائي إلى بنطالي، صعودًا إلى قميصي ووجهي وشعري القصير. وقال بتعجُّب شديد: «أنت تريد أن تقابل الأميرة... مي ـ سي شخصيًا! حقًا من أنت؟»

---

* ـ كاتب عراقيّ.

١ ـ أي ـ كَال ـ لا: القصر الملكيّ.

٢ ـ هذه هي الحيوانات التي ورد ذكرها.

٣ ـ صبّوها في البراميل الكبيرة.

٤ ـ صلاة سومرية عند تقديم القرابين.

ـ بل دعني أسألك أنا، من أنت؟ أنت dumu banda-ham.[1] وأَعْرف أنّك مُولع بمراقبة القرابين لا حسب شروط القصر الأميريّ، بل حسب شروطك أنت. أيُّها المحاسب، أنا كمواطن سومريّ، ووفقًا للوائح، أجدني حرًا في أن أقدِّم قرباني شخصيًا للأميرة مي ـ سي. يحقّ للمواطن السومريّ أن يتبادل الهدايا، حتى البسيطة، مع الأمراء والأميرات.

هنا تَدخَّلَ محاسبٌ آخر محتدًا: «ماذا؟.. بجدي صغير أسود بلون الفحم تريد أن ترى الأميرة مي ـ سي، ونحن نَحْشر آلافَ الهدايا في الحظائر ولانستطيع رؤيتها من بعيد؟!»

ـ لأنّ أيّ واحد منكم لا يفكّر في الأميرة كتحفة، كسحر، كجمال أسطوريّ. ثم لماذا تَسْخر من هديتي المتواضعة في هذا اليوم المقدّس؟ إنّك أيُّها المحاسب لا تَعْرف قوانينَ سومر في تقديم الهدايا. اسمعْ. عندما وَضعت ابنةُ برنمتارس طفلاً قدّم أحدُهم لها جملاً، وقدّمتْ زوجةُ أحد ربابنة السفن وزوجه خروفًا واحدًا. وأنت تمنعني من أن آخذ جديًا وكومة خبز للأميرة؟ أنت لا ولن تعرف تلك التحفة العظيمة، مي ـ سي. إذا منعتني من مقابلتها وَضَعتَ نفسَكَ تحت طائلة عقاب إهانة مواطن سومريّ يريد أن يقدِّم قربانًا لأميرته في عيد مقدّس. يبدو أنّ النَّهَمَ أنساكم التواضُعَ. هيّا، أفسحِ الطريقَ وأعْلِنْ بأعلى صوتك أنّ رجلاً سومريًا طيّبًا يُدْعى جليل القيسي يريد مقابلةَ الأميرة مي ـ سي.

◆ ◆ ◆

انسحب المحاسب فاسحًا الطريقَ لي وللجدي والحارس. قطعتُ مسافة طويلة أمشي برفقٍ في رواق طويل وجميل مضاءٍ بشموع كبيرة. استقبلني رجل وقال: «ما هذا العياط؟» ولدهشتي سمعتُ صوت المحاسب يقول: «هذا الرجل الغريب الشكل والملبس يصرّ على مقابلة الأميرة مي ـ سي.»

سألني الشاب: «أأنت مجنون؟»

ـ بأيّ حقّ تتّهمني بالجنون؟ أهذه لغةُ رجلٍ يَعمل في قصر أميرة عظيمة مثل مي ـ سي؟ أَتَعْرف عمّا تعبِّر التقدماتُ في الأعياد؟

ـ عن ممارسة دينية. لكن...

ـ لا، لا. أنت إذن تَجهل الطقوسَ السومرية. نعم الدِّين جزء، ولكنّها تعبّر أيضًا عن الفرح الشديد، والصداقة، والمحبّة، والرغبة في تكريم الأمراء والأميرات لأنّهم يمثّلون الآلهة.

ـ وأنت تريد أن ترى ممثِّلَ الآلهة؟

ـ من غير سخرية رجاءً. من حقّي.. ثم إنّ الأميرة بشرٌ مثلي.

ـ ماذا تريد منها؟

ـ إنّي أحبّها.

ـ هل سبق أن رأيتَها؟

ـ في الحلم فقط.

من بعيد جاء صوت نسويّ ناعم ورقيق يلامس القلب: «دع هذا السومريَّ الأصيلَ يدخلْ عليّ.» جمد الشابُّ في مكانه وتمتم قائلاً: «أيَّتُها الآلهة... الأميرة بلسانها تطلبه؟!» ثم وضع باطن يده على كتفي وقال بأدب جمّ: «اتبعني، سيّدي.»

دخلتُ غرفة بلون الذهب، ووجدتُني وجهًا لوجه أمام أروع وأبدع جمال خلقه الربّ.

---

١ ـ مسؤول حسابات بيت الأمير.

قالت بصوت رخيم: «حسن.. ماذا تريد أيُّها السومريّ؟»

قلت: «حسن. لقد انتصرتُ يا مولاتي الأميرة.»

ـ انتصرتَ؟ على ماذا؟

ـ على نفسي.

ـ أفصحْ.

ـ أيَّتُها الأميرة المبجَّلة مي ـ سي، كنتُ قبل أن أراكِ أقول مع نفسي إنّ الإله عندما خلقَكِ قد أَوْدَعَ فيكِ غوامضَ الكون المقدَّسة.

لانت قسماتُ وجهها الساحر وهي تستمع إلى كلماتي وقالت: «هذا الكلام قبل أن تراني. والآن هل مازالت فيّ غوامضُ الكون المقدّسة؟»

ـ آه، أيَّتُها المرصَّعة بالنجوم والزمرد، أجل ستبقين كذلك إلى يوم الدين.

ـ ما اسمك؟

ـ جليل.

ـ يبدو يا جليل أنّني إنْ أطلتُ الحديثَ معك فلن ترتوي من التلطُّف إليّ.

ـ لأنَّني يا أميرتي أَعْترف بأنَّني ضعيف جدًا أمامكِ. ملعونٌ كلُّ واحد في مدينتك لا يَشْعر بالضعف أمام جمالكِ.

ـ يا جليل، أين ومتى تخيّلتني، أو رأيتني أولَ مرّة؟

ـ في الحلم... في ليلة صيفية مرصّعة بالنجوم. رأيتكِ وأنت تقتربين منّي مثل خفقاتٍ، مثلَ القلقِ، مثلَ بشيرٍ يدعوني إلى احتفالات أبدية.

ـ حقًا. لماذا؟

ـ أُقْسم.. أولستِ وسيطةً بين الآلهة والمدينة؟ وكنتُ يا أميرتي أحلم بكِ أيضًا كسموّ، كتحفة، كجمال أسطوريّ. آه.. أنتِ.. أنتِ..

ـ أنا ماذا؟

ـ منذ أن حلمتُ بكِ، وحتى هذه اللّحظة، وأنتِ نار متّقدة في رأسي.

ـ هل جئتَ إلى هنا وفي هذا العيد لتغازلني؟

ـ أرجوكِ يا أميرتي، لا تعكّري عليّ وجودي أمامك في هذا الصباح المشرق.

ـ لكنْ واضحٌ أنّكَ تغازلني.

ـ أميرتي، الحبّ لا يعترف بأيّة قوّة. لكنّ أنّى لي أن أحبَّكِ وأنا زبدٌ جفاء، مجرّدُ سومريٍّ بسيط.

ـ حسن... ماذا لو أحببتُكَ أنا.

نظرتُ إلى لمعان عينيْها: كان مثلَ سكّينٍ تحزّ القلبَ. عندما تأخّرتُ في الردّ عليها قالت بصوت فيه جَرْسٌ آمرٌ: «ماذا قلتَ؟ ماذا لو أحببتُكَ أنا؟»

ـ كنتُ يا أميرتي أصدّق نفسي لو كنتُ أنا وأنتِ كالفحم والماس.

ـ كيف، وهما مادتان متنافرتان؟

ـ لا يا أميرتي، إنَّهما من عنصر واحد. أنا بحكم أرومتي الفقيرة أنساب من بين أصابعك.

ـ حسن. ماذا لو أردتُ أن أتنازل أنا عن أرومتي وعن حقّ تمثيليّ للآلهة؟

ـ وهل أستحقّ، أنا جليل القيسي، أن تتنازل أميرتي العظيمة، والمجدُ يضيء جبينَها، عن أرومتها من أجلي؟

ـ قلتَ قبل قليل إنّ الحبّ لا يعترف بأيّة قوّة. أتعرف يا جليل أنّني في هذا البذخ الخزافيّ دائمةُ الشكاة؟ السأم.. السأم. عالم سخيف هذا يا جليل، أليس كذلك؟

ـ لا تعليق لي وأميرتي تقول الحقيقة.

◆ ◆ ◆

أَمَرَتْ بتقديم الخمر لي. شربتُ بلذّة. قالت بعد أن أخذتْ رشفةً من كأسها: «أيّة قوّة مقدّسة جلبتْكَ إلى هنا؟»

ـ حلمي، وأنتِ، والعيدُ المقدّس، وعنادي، وربما قدري والتهابي بنيران تخيلاتي... وأخيرًا الطقوسُ الجميلةُ لعيد Ki-sug.

ـ أنا، يا جليل، ممثّلةُ الآلهة التي تَمْنح الخصبَ للذين لهم أراضٍ بور. لا أَعْتقد أنّ إنسانًا شاعرًا وحالمًا مثلك لديه أراضٍ بور جاء ليطلب منّي أن أَرْجو الآلهة أن تُحْييها.

ـ لا أريد العالم كلّه بعد أن رأيتُكِ.

ـ لماذا جئتَ إذًا يا جليل؟

ـ بالإضافة إلى رؤيتك، لديّ حبٌّ روحيّ للعديد من طقوس أجدادي وأعيادهم. أزور هذه المدينة وتلك، وأَشْعر بحرقة في قلبي وروحي، وبكبرياء يصل حدَّ الوجد... لحضارتي.

ـ أصيلٌ أنت. من أيّة مدينة؟

ـ من مدينة أرنجا... أرنجا التي أعشقها.(١)

ـ هذا الجدي الصغير جلبتَه معكَ من أرنجا؟

ـ الطقوس هي الطقوس يا أميرتي. ثم يجب أن يُعطى كلُّ ذي حقٍّ حقّه.

ـ أيُّ حقّ عليك يا جليل؟

ـ حقّ التاريخ الذي أَحْترمه. ولأنّك أميرة، ومصطفاةٌ، وساحرةُ الجمال...

قاطعتني فجأةً، وهي تقول:

ـ أيٌّ من هذه الصفات أكثرُ قربًا إلى قلبك؟

ـ الثلاث معًا.

ـ كذّاب.

ـ كذبٌ أبيض أشرفُ بكثير من صدق بلا معنى.

أَطلقتْ ضحكةً ناعمةً وقالت: «اقتربْ منّي يا جليل. أَشْعر برغبة صادقة في أن أقبّلك!»

ـ أميرتي... أرجوكِ!

---

١ ـ أرنجا: الاسم القديم لمدينة كركوك.

ـ يا جليل، أنا التي تسيء الأدبَ لا أنتَ. هيّا اقتربْ.

ذهبتُ بخطوات قصيرة واقتربتُ منها. بحركةٍ جدّ ناعمة، وعفوية، وعذبة قبّلتني بحرارةٍ فوق شفتيّ مراتٍ عديدة، وقالت:

ـ اجلسْ جنبي. اشربْ أكثر. لماذا تغْلق عينيْك هكذا؟

ـ بصراحة، أميرتي، أَشْعر أنّ أسلاك أعصابي قد اشتعلتْ. إنّني الآن مليء بخيال مهلوس.

ـ وماذا بعد يا جليل... تكلّم.

ـ أميرتي، أَشْعر أنّني مترتع بلهيبٍ غريب. إنّ صوتكِ الذي يَهبّ كالنسيم يجعلني أحلّق في هواء أثيريّ. أنا الآن لهيبٌ وجليدٌ. إنّ السعادة تغمز لي بطريقة شيطانية. إنّ جمالك وقبلاتك تَرْعش قلبي وتضبِّب بصري. لذا أغلق عيني.

أطلقتْ ضحكةً صدّاحةً رنّتْ في أذني وقلبي، وهي تقول بصوت بلّوريّ نقيّ: «جليل، أريد أن أحبّك.»

ـ ما هذه الكلمات السحابية يا أميرتي؟ ما هذا العنصر الفيّاض في مشاعرك؟ إنّك تملإين روحي بخوف حلزونيّ. يا إلهي! هل حقًّا تريدين أن تجرّي على نفسكِ لعنةَ الآلهة؟ لا لا! وقبل أن تَسْمحي لي بمغادرة قصركِ، دعيني أقدِّم لكِ هذا الخبز اللذيذ المصنوعَ بالزيت ninda-banda. هذا الخبز مصنوع بيد نساء أرنجا الرائعات. كُلي...»

أخذتْ قضمةً صغيرةً من الخبز وهي تقول: «مبارَكٌ خبزُكم يا أهالي مدينة أرنجا. وسوف أطلب من الآلهة أن لا تكون أراضيكم بورًا بعد الآن، وأن يَكْثر فيها الخبزُ والزيتونُ والصفاء. في المرّة القادمة يا جليل تعالَ وحدَك من غير قرابين.

ـ لماذا يا أميرتي؟

ـ ربما في المرّة القادمة لن أَدَعَكَ تَرْحل.

ـ لماذا يا أميرتي؟

ـ لأنّك ستكون من نصيبي. أما الآن فاذهب. لا أريد أن أشلّ جسدَكَ وجسدي. تعالَ السنةَ القادمة. مرّةً أخرى، مباركون أهلُ أرنجا. إنّ الإله أنليل لن يخيِّب رجائي. اذهبْ... يجب أن تجيء في السنة القادمة. وداعًا.

بغداد